محاضرة :المصطلحات القاعدية المندمجة في العلاج الأسري النسقي

Integrated Core Concepts in Systemic Family Therapy

مقدمة

يقوم العلاج الأسري النسقي على رؤية إبستمولوجية تعتبر أن الاضطراب النفسي لا يُفهم بوصفه ظاهرة فردية منعزلة، بل كنتاج ديناميكي لتفاعلات مستمرة داخل نسق علائقي، تُعدّ الأسرة أبرز تمثّلاته. ومن هذا المنطلق، لا يمكن التعامل مع مفاهيم مثل النسق، التفاعل، الحدود، الأنماط السلوكية، الاستقرار، والتغيير بوصفها مصطلحات منفصلة، بل كعناصر مترابطة تُشكّل معًا البنية النظرية التي توجّه الفهم والتدخل العلاجي. تهدف هذه المحاضرة إلى تقديم هذه المصطلحات في صياغة مدمجة، تُبرز منطقها الداخلي ووظيفتها الإكلينيكية.

1 الأسرة كنسق علائقي ديناميكي

يُنظر إلى الأسرة في العلاج الأسري النسقي باعتبارها **نسقًا مفتوحًا** يتكوّن من مجموعة من الأفراد المرتبطين بعلاقات تبادلية، تحكمها قواعد ضمنية، وأدوار متبادلة، وحدود تنظّم القرب والبعد. هذا النسق لا يعمل بطريقة خطية، بل بطريقة دائرية، حيث يؤثر كل فرد في الآخرين ويتأثر بهم في آن واحد. ووفق هذا المنظور، لا يُختزل الفرد في خصائصه النفسية الداخلية، بل يُفهم من خلال موقعه داخل شبكة العلاقات الأسرية.

فعلى سبيل المثال، لا يُفسَّر قلق أحد الأبناء فقط بسماته الشخصية أو تاريخه الفردي، بل بوظيفته داخل النسق الأسري، وبالدور الذي يؤديه هذا القلق في تنظيم العلاقات بين الوالدين أو في الحفاظ على توازن الأسرة.

2 التفاعل كأساس للفهم النسقي

يشكّل **التفاعل الأسري** اللبنة الأساسية في التحليل النسقي، إذ لا يركّز المعالج على ما يشعر به الفرد فقط، بل على كيف يتفاعل مع الآخرين. فالسلوكيات لا تُفهم كاستجابات معزولة، بل كأفعال داخل سلسلة تفاعلية مستمرة من الفعل ورد الفعل. ويُنظر إلى هذه التفاعلات بوصفها حاملة للمعنى، ومُنتِجة للعرض النفسي.

في كثير من الحالات، يظهر العرض كنتيجة مباشرة لنمط تفاعلي متكرر؛ فانسحاب أحد الزوجين قد يقابل بضغط أو نقد من الطرف الآخر، ما يزيد الانسحاب، ويؤدي إلى تصعيد الصراع. هنا، لا يكون الانسحاب ولا النقد هو "السبب"، بل التفاعل بينهما هو ما يُنتج الخلل.

3 الأنماط السلوكية والسببية الدائرية

مع تكرار التفاعلات، تتشكّل داخل الأسرة **أنماط سلوكية ثابتة** تصبح مع الوقت تلقائية ومقاوِمة للتغيير. هذه الأنماط تعمل وفق منطق **السببية الدائرية**، حيث لا يوجد سبب أولي واحد للمشكلة، بل سلسلة من التأثيرات المتبادلة التي تُغذّي نفسها.

فعندما يُوصَف طفل بأنه "مثير للمشاكل"، قد يتبيّن أن هذا الوصف جزء من نمط دائري: سلوك الطفل يثير قلق الوالدين، فيبالغان في الضبط والسيطرة، فيزداد تمرّد الطفل، مما يؤكد اعتقاد الوالدين بوجود "مشكلة" لديه. يعمل العلاج النسقي على تفكيك هذا النمط بدل البحث عن خطأ فردي.

4 الحدود وتنظيم العلاقات داخل النسق

تُعد **الحدود الأسرية** الإطار التنظيمي الذي يضبط التفاعل داخل الأسرة وبين أنساقها الفرعية (الزوجي، الوالدي، الأخوي). هذه الحدود قد تكون مرنة تسمح بالتواصل والاستقلال، أو جامدة تُنتج تباعدًا عاطفيًا، أو مندمجة تؤدي إلى تداخل مفرط وفقدان التمايز.

اختلال الحدود يُعد من المصادر الأساسية للأعراض النفسية. فعندما تكون الحدود بين الوالدين والأبناء غير واضحة، قد يُزجّ بالطفل في صراعات الكبار، فيؤدي أدوارًا لا تتناسب مع مرحلته النمائية، ما ينعكس في قلق أو اكتئاب أو اضطرابات سلوكية.

5 الاستقرار النسقي ووظيفة العرض

تميل الأسرة، بوصفها نسقًا، إلى الحفاظ على **الاستقرار (الاتزان)** حتى وإن كان هذا الاستقرار قائمًا على معاناة أحد أفرادها. ويُنظر إلى العرض النفسي في هذا السياق بوصفه أداة للحفاظ على التوازن القائم، لا مجرد خلل يجب إزالته.

ففي بعض الأسر، يؤدي اكتئاب أحد الأفراد وظيفة تنظيمية، كأن يمنع تفكك العلاقة الزوجية أو يحافظ على تماسك الأسرة حول "مشكلة مشتركة". ولهذا، فإن تحسّن هذا الفرد قد يهدد الاستقرار القائم، ويُقابَل – دون وعي – بمقاومة نسقية.

6 التغيير كإعادة تنظيم للنسق

لا يهدف العلاج الأسري النسقي إلى إزالة العرض فقط، بل إلى **إحداث تغيير في بنية النسق وأنماط تفاعله** . ويحدث التغيير عندما يتم كسر الحلقة التفاعلية المعتادة، وإدخال استجابات جديدة تُجبر النسق على إعادة تنظيم نفسه.

التغيير هنا ليس حدثًا مفاجئًا، بل عملية تدريجية قد تواجه مقاومة، لأن النسق يميل بطبيعته إلى العودة إلى توازنه السابق. ولهذا، يعمل المعالج النسقي على مرافقة الأسرة في بناء توازن جديد أكثر مرونة وصحة، بدل الاكتفاء بتعديل سلوك فرد واحد.

7 تكامل المفاهيم في الممارسة الإكلينيكية

في الممارسة العملية، لا تُستخدم هذه المفاهيم بشكل منفصل، بل كعدسة تحليلية واحدة: فالنسق يُفهم من خلال تفاعلاته، والتفاعلات تُنتج أنماطًا، والأنماط تُحافَظ عليها عبر حدود وقواعد، والقواعد تُنتج استقرارًا،
والاستقرار يُقاوِم التغيير،والتغيير يتطلّب إعادة تنظيم شاملة للنسق. بهذا المعنى، يتحول العلاج الأسري النسقي من علاج للأعراض إلى **عملية تفكيك وإعادة بناء للمنطق العلائقي للأسرة.**

خاتمة

إن المصطلحات القاعدية في العلاج الأسري النسقي لا تمثّل مجرد أدوات نظرية، بل تُشكّل رؤية شاملة للإنسان داخل علاقاته. ومن خلال دمج مفاهيم النسق، التفاعل، الأنماط السلوكية، الحدود، الاستقرار، والتغيير، يقدّم العلاج الأسري النسقي إطارًا عميقًا لفهم الاضطرابات النفسية والتدخل فيها بطريقة تحترم تعقيد التجربة الإنسانية وسياقها العلائقي.

Nichols, M. P., & Davis, S. D. (2020). *Family therapy: Concepts and methods* (12th ed.). Pearson.

Goldenberg, I., & Goldenberg, H. (2013). *Family therapy: An overview* (8th ed.). Cengage Learning.